أغاثا كريستي

عيّنة من الكتاب

(للتصفح والاطّلاع)

القَضَايَا الأخيرة للآنِسَة مَارْبِلْ

بسم الله الرحمن الرحيم

أغاثا كريستي

القَضَايَا الأخيرة للآنِسَة مَارْبِلْ

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٧٩

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

صورة الغلاف مُستوحاة من قصة «دمية الخياطة»

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لمجموعة أغاثا كريستي القصصية
المنشورة أول مرة عام ١٩٧٩ بعنوان

Miss Marple’s Final Cases

Copyright © Agatha Christie Ltd 1979

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الرابعة
٢٠٢٠

مقدمة

بقلم: محرر الطبعة العربية

هذه المجموعة من القصص القصيرة ظهرت بهذا الاسم بطبعتها الإنكليزية للمرة الأولى في عام ١٩٧٩، أي بعد نحو ثلاث سنوات من وفاة مؤلفتها أغاثا كريستي. وهي تضم مجموعة من القصص القصيرة التي نشرتها أغاثا في وقت مبكر في بعض المجلات الأسبوعية في إنكلترا، في الفترة بين عام ١٩٣٤ وعام ١٩٥٩، وإن كنا لا نعرف تاريخ نشر كل منها بشكل دقيق.

وقد عمد الناشر الإنكليزي إلى جمعها وإصدارها بهذا الاسم لتكون في متناول قرّاء أغاثا كريستي الذين لا سبيل إليهم للوصول إلى تلك المجلات القديمة التي نُشرت القصص فيها.

ولعل اسم «قضايا الآنسة ماربل الأخيرة» قد وُضع للدلالة على أن هذه هي المرة الأخيرة التي سيرى فيها القرّاء قصصاً لم يقرؤوها للمؤلفة فيما هو منشور من مجموعات قصصية من قبل، وإن يكن التعبير غير صحيح من حيث إن الإيحاء المباشر لكلمة «الأخيرة» سيقود القارئ إلى الظن بأن الآنسة ماربل

ستموت في آخر هذه القصص، وهذا غير صحيح، فهي قد كُتبت ونُشرت للمرة الأولى في الثلاثينيات والأربعينيات، وقد جاءت بعدها قصص قصيرة وروايات طويلة عديدة من بطولة الآنسة ماربل.

أما الملاحظة الأخرى فهي أن هذه المجموعة قد ضمت ثماني قصص قصيرة، ورغم أن عنوان الكتاب هو «القضايا الأخيرة للآنسة ماربل» إلا أننا نجد أن الآنسة ماربل تظهر في ستٍّ من هذه القصص فقط، أما آخر قصتين فليستا من بطولتها، بل إنهما ليستا من النوع العادي من قصص وروايات ألغاز الجريمة الذي تكتبه أغاثا، وإنما من نوع آخر من «الألغاز الغريبة» مما كتبته في بعض الأحيان ولكنها لم تكثر منه (ومن هذا النوع أكثر القصص القصيرة في مجموعة «كلب الموت» التي ستصدر ترجمتها العربية مع صدور هذا الكتاب إن شاء الله).

إلا أننا لم نغير ترتيب هذه القصص أو عنوانها وأبقيناها كما صدرت في طبعتها الإنكليزية، وقد زدنا عليها مقدمة طويلة عن الآنسة ماربل لم تتضمنها الطبعة الإنكليزية، ونظن أن القارئ الذي تابع روايات وقصص الآنسة ماربل من قديم سيجد فيها متعة كبيرة، وكذلك القارئ الذي يتعرف على هذه العانس العجوز الفريدة للمرة الأولى.

* * *

فصل تمهيدي خاص بالطبعة العربية

الآنسة ماربل
حياتها وعصرها

ملاحظة من محرر الطبعة العربية: لا بد لي أن أشير -من باب الأمانة العلمية- إلى أن المعلومات التي تضمنها هذا الفصل قد أُخذت كلها (بتصرف طفيف) من كتابٍ صدر عام ١٩٨٥ بعنوان: «الآنسة ماربل، حياتها وأحداث عصرها» للمؤلفة الكندية آن هارت، وهي كاتبة لها عدد من القصص القصيرة والمسرحيات، ولها كتاب آخر عن الشخصية الأشهر التي ابتدعتها أغاثا كريستي عنوانه: «هيركيول بوارو، حياته وأحداث عصره».

قرية سينت ميري ميد

قد تكون الآنسة ماربل واحدة من أكثر الشخصيات الخيالية شهرة في التاريخ، فقد قرأ أخبار مغامراتها مئات الملايين من الناس وعرفوا عنها أدق التفصيلات: عن شخصيتها واهتماماتها وعلاقاتها الاجتماعية وطريقة تفكيرها، وغير ذلك مما لا يكاد الناس يعرفونه عن كثير من المشاهير الحقيقيين من الناس. ولكنها -بعدُ- لم تعش في عالم الواقع قَطّ ولم تكن سوى «اختراع» أبدعه خيال أغاثا كريستي.

على أن أغاثا كريستي لم تخترع فقط صديقتنا الآنسة ماربل، بل هي قد اخترعت معها -أيضاً- القرية التي عاشت فيها، سينت ميري ميد، وكل السكان الذين عاشوا فيها.

* * *

تقع سينت ميري ميد -كما تخيلتها المؤلفة- في جنوب إنكلترا، بين بلدتَي ماركِتْ بيسنغ ولوماوث، ولكننا لا نكاد نعرف عن تاريخها القديم أي شيء.

أما الخريطة التي حصلنا عليها للقرية فقد أخذنا تفصيلاتها

منزل غوسينغتون هول
طريق لانشام
المنطقة
السكنية الحديثة
الكنيسة
البلو بور
الشارع العام
مكتب البريد
إلى متش بنهام
بيت
الآنسة
وذربي
بيت
الآنسة هارتنيل
بيت
الآنسة ماربل
طريق
حقول
أولد هول

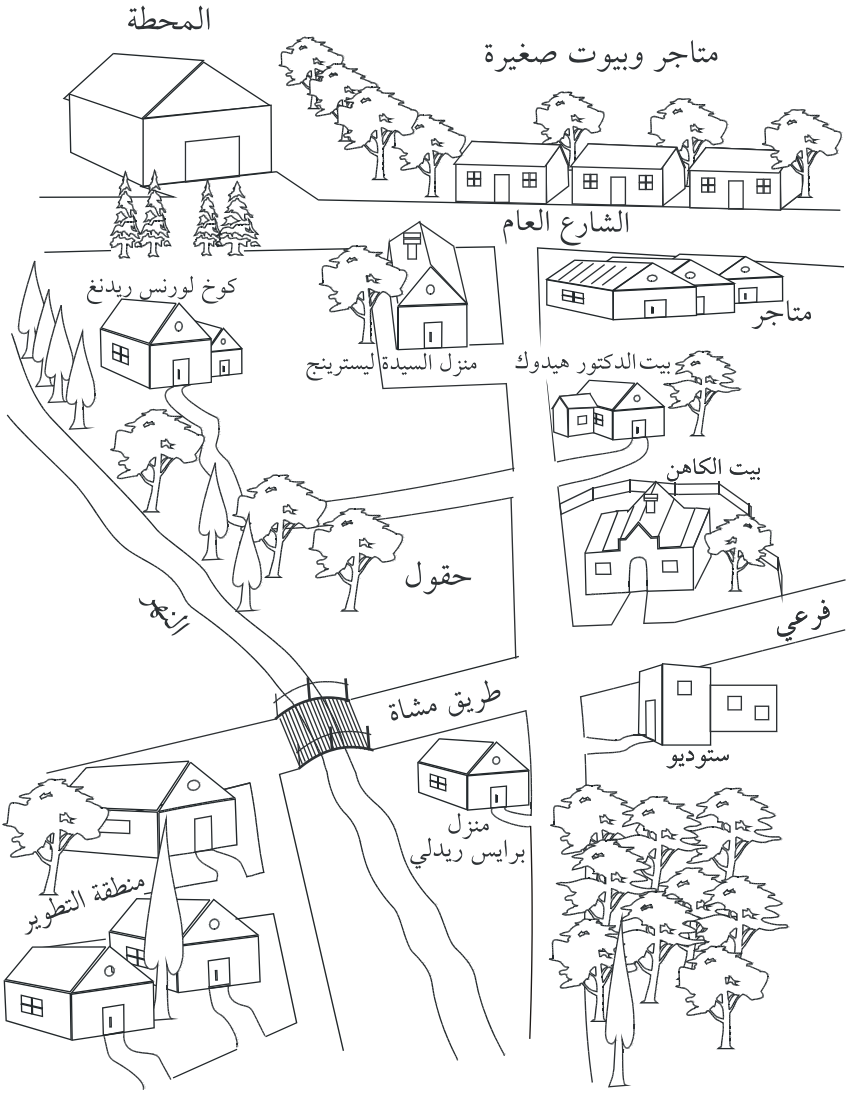
المحطة
متاجر وبيوت صغيرة
الشارع العام
كوخ لورنس ريدنغ
منزل السيدة ليسترينج
متاجر
بيت الدكتور هيدوك
بيت الكاهن
حقول
النهر
فرعي
طريق مشاة
ستوديو
منزل برايس ريدلي
منطقة التطوير

الأساسية من رواية «جريمة في القرية» (التي نُشرت سنة ١٩٣٠) مع إضافات تخص منطقة التطوير حصلنا عليها من رواية «شرخ في المرآة» (التي نُشرت سنة ١٩٦٢) وتفصيلات ثانوية إضافية من بعض الروايات الأخرى (مثل روايتَي «جيب مليء بالحبوب» و«جثة في المكتبة»).

إنها قرية صغيرة متواضعة تتكون من الشارع العام الذي يمتد من محطة القطار إلى مقهى وفندق البلو بور (الخنزير الأزرق). وتطلّ على هذا الشارع بعض البيوت والمتاجر، ومن ضمنها بيت الآنسة ماربل ذاتها وإلى جواره بيتا الآنسة هارتنيل والآنسة وذربي. كما يتفرع عن هذا الشارع العام طريق يطل عليه بيت الكاهن وبيت الدكتور هيدوك وينتهي ببيت برايس ريدلي، ومنه يتفرع طريق للمشاة يقود إلى منطقة التطوير. كما نجد طريقاً آخر يتفرع عن الشارع العام من جهة البلو بور ويمر من خلف بيوت الآنسة ماربل والآنستين وذربي وهارتنيل وصولاً إلى بيت الكاهن، حيث يلتقي مع طريق المشاة الذي يفضي إلى منطقة التطوير.

ومن هذا الطريق الخلفي يتفرع طريق صغير ينتهي بمنزل «أولد هول»، وهو أحد البيتين الكبيرين اللذين تحتضنهما القرية، أما الثاني فهو منزل «غوسينغتون هول» ويقع على بعد نحو ميل وربع ميل عن الشارع العام على طريق لانشام. وعلى ذلك الطريق نفسه تقع منطقة سكنية حديثة (أو كانت كذلك في وقت ما) تضم عدداً من البيوت السكنية المتلاصقة، وقد أُنشئت

في أواخر العشرينيات. وهي غير منطقة التطوير، تلك المنطقة السكنية العصرية التي تضم عدداً من الأبنية التي ترتفع عليها هوائيات التلفزيون، وقد أُقيمت في أوائل الستينيات في الطرف الآخر من القرية فوق الأراضي التي كانت -فيما مضى- مُروجاً مُخضَرّة رائعة.

منزل «غوسينغتون هول» بيت كبير فكتوري الطراز، وقد أقامت فيه عائلة بانتري. وقد كان الكولونيل بانتري (ذو الوجه الأحمر والكتفين العريضتين) بمثابة وجيه المنطقة، وقد بدا من أولئك المحافظين الذين يتابعون صحيفة «التايمز» ويدافعون بحماسة عن الإمبراطورية البريطانية! أما زوجته، دولي، فقد صارت أعز صديقات الآنسة ماربل. وبعد موت الكولونيل باعت دولي البيت وأبقت لنفسها الكوخ الصغير عند البوابة الشرقية لتقيم فيه. وقد اشترت المنزلَ الكبير ممثلةٌ مشهورة اسمها مارينا غريغ وسكنته مع زوجها الخامس، ولكن سلسلة من الجرائم لم تلبث أن أحاطت بهذا المنزل الفكتوري القديم (انظر التفصيلات في رواية «شرخ في المرآة»).

ولم يكن منزل «أولد هول» مختلفاً كثيراً عن البيت الكبير الآخر، فقد كان -مثله- بيتاً كبيراً فكتوري الطراز، وكان محاطاً بالغابات من جهاته الثلاث. وقد أقامت فيه عائلة الكولونيل بروثيرو حتى مقتله (في رواية «جريمة في القرية») حيث عُرض للبيع بعد ذلك، ولكنه استعصى على البيع لسنوات، حتى تم -في النهاية- تقسيمه إلى أربع شقق متساوية مع نظام مركزي

لتسخين الماء، وتم تأجيره على هذه الحال (انظر قصة «قضية الخادمة المثالية» في هذه المجموعة: «القضايا الأخيرة للآنسة ماربل»).

على أن بيت الآنسة ماربل يبقى أهم بيت في القرية بالنسبة لنا، وهو يطل -كما رأينا قبل قليل- على الشارع العام للقرية فيما يمكن لنا أن نسميه موقعاً إستراتيجياً يمكّن صاحبته من المراقبة الدقيقة لكل ما يجري في القرية.

والواقع أن هذا العمل لم تستأثر به الآنسة ماربل وحدها من دون جارتيها اللتين تشغلان البيتين المجاورين: الآنسة هارتنيل والآنسة وذربي، وكل منهما عجوز عانس مثلها، حتى لنجد مبرراً لهذا الاسم الذي نجده قد أُطلق على العجائز الثلاث معاً في بعض الروايات: «الحرس القديم لقرية سينت ميري ميد». أما الكولونيل ميلتشيت (الذي صار واحداً من أشد المعجبين بفطنة وذكاء الآنسة ماربل) فقد قال ذات مرة عن هذه المجموعة من السيدات: "هؤلاء العجائز الثرثارات... وجبة الشاي وحديث الفضائح و«القيل والقال» يومياً في الرابعة والنصف من عصر كل يوم"، ثم يضيف في موقع آخر واصفاً القرية بأنها: "ذلك الجزء من العالم الذي يزدحم بالنساء العجائز أكثر من أي مكان آخر في الدنيا"!

وعلى الطرف الآخر من الشارع مقابل هذه البيوت الثلاثة تقع الكنيسة التي تعتبر نقطة تجمّع لأفراد القرية. أما القس نفسه فقد كان بيته بعيداً عن الكنيسة بعض الشيء ويطل على

الشارع الصغير الذي يتفرع عن الشارع العام من أمام بيت السيدة ليسترينج. وقد أقام في هذا البيت (بيت القس) عدد من القسس الذين تناوبوا على القرية خلال الأعوام الخمسين التي عرفناها أثناءها، غير أن أشهر هؤلاء -بلا منازع- هو ليونارد كليمنت (الذي روى لنا قصة «جريمة في القرية») والذي اشتهر بشروده الدائم وبمشاكسات زوجته الشابة المخلصة غريزيلدا.

وفي هذا الشارع الصغير نفسه يقع بيت الدكتور هيدوك، وهو شخص له أهميته في حياة القرية عموماً وفي حياة الآنسة ماربل بشكل خاص، وقد وصفه القس كليمنت مرة بقوله: "إن هيدوك هو أفضل شخص أعرفه"، أما الكولونيل ميلتشيت فوصفه بأنه "شخص يوثق به، وأي شيء يقوله يمكن الاطمئنان إلى صحته".

وفي نهاية الشارع يقع منزل السيدة برايس ريدلي، وهي أرملة غنية متسلطة، ولم تكن بأقل أهمية من العوانس الثلاث في نشاط «نادي القيل والقال»! أما في أوله فيقع بيت السيدة ليسترينج المسمى «ليتل غيتس» (أي: البوابات الصغيرة)، وهو بيت صغير كان -في الماضي- ملكاً لجنرال متقاعد من الذين أمضوا جزءاً كبيراً من حياتهم العسكرية في الهند.

بقي لدينا اثنان من السكان المهمين في القرية، وهما المحامي ومدير البنك. أما محامي القرية فقد كان -لوقت طويل- السيد بيثيريك (الذي كان رجلاً ضئيلاً يضع نظارتين اعتاد النظر من فوقهما وليس من خلفهما!) وقد خلفه ابنه، السيد بيثيريك

الصغير، بعد وفاته. وأما البنك فقد عرفنا له عدداً من المديرين على مر السنين، مثل السيد هودغسون (الذي سافر في رحلة بحرية ثم تزوج فتاة بعمر ابنته لا يعرف أحد من أين جاءت!) والسيد إيد (وهو محافظ جداً، ولكن يبدو أنه مغرم بالمال بشكل فظيع!) والسيد إيميت (الذي تزوج فتاة من طبقة مختلفة لم تنجح أبداً في التأقلم مع زوجات رجال المال الآخرين من أصدقاء زوجها).

وقد نزل بالقرية بعض الغرباء بين وقت وآخر، وكانوا يثيرون -دائماً- شهية «حرس القرية القديم» للتحري والبحث، وكانوا مادة دسمة في «نادي القيل والقال» السابق ذكره في معظم الأحيان. فمن هؤلاء الغرباء عالم الآثار الذي جاء إلى القرية للبحث عن آثار مزعومة في الأراضي والغابات الواقعة وراء منزل أولد هول (في رواية «جريمة في القرية»)، ومثله الشاب الذي يشتغل بالرسم، لورنس ريدنغ، والسيدة الغامضة، السيدة ليسترينج (وكلاهما يظهران في الرواية ذاتها). ومن هؤلاء الغرباء أختان من العوانس سكنتا شقة في منزل أولد هول بعد تقسيمه إلى شقق صغيرة متساوية (في قصة «قضية الخادمة المثالية» في هذه المجموعة من القصص القصيرة) والسيدة سبينلو التي جاءت للعيش في قرية سينت ميري ميد فوقع لها حادث سنكتشف تفصيلاته في قصة «جريمة قتل بالمتر» في هذه المجموعة.

* * *

وعلى الجهة الأخرى من الشارع العام (وهي الجهة التي تقابل بيت الآنسة ماربل) تقع مجموعة من المتاجر الصغيرة.

أول هذه المتاجر هو محل بيع الأسماك، وقد عمل فيه في خدمة التوصيل إلى المنازل -في السنوات الطويلة التي عرفنا القرية خلالها- مجموعة من الشبان كان لهم اسم واحد دائماً، وهو «فريد»، ولكننا نعلم أن هذا الاسم قد حمله أكثر من شخص واحد، مثل فريد جاكسون (في «جريمة في القرية») وفريد تايلر (في «إعلان عن جريمة»)، وبعد ذلك بسنوات نجد شخصاً آخر بنفس الاسم يكون سبباً في ابتعاد خادمة الآنسة ماربل، غلاديس، عن القرية (في رواية: «جيب مليء بالحبوب»).

المتجر التالي هو دكان اللحام، السيد ميردوخ، وقد دارت حوله إشاعات كثيرة في بعض الأوقات، ولكن كان الرأي الغالب أنه هو نفسه الذي يشجع انتشار الشائعات عن دكانه.

بعد ذلك نجد المخبز الذي يملكه السيد غولدن، وقد كانت له ابنة طموحة اسمها جيسي، تركت القرية لتعمل مربية أطفال في لندن، ولم تلبث أن تزوجت ضابطاً من أولئك الضباط الذين عادوا من الهند.

ثم نجد دكان البقال، السيد بارنز، الذي كان الدكان المفضل للسيدات العجائز، ولا سيما للآنسة ماربل، إذ إنه قد حافظ على شكله ولم يدخل عليه أي تحسين أو تطوير على مدى ثلاثين عاماً.

وأخيراً هناك مجموعة من المحلات الصغيرة التي كانت الآنسة ماربل تتردد عليها وتستفيد من خدماتها، مثل دكان بيع الصوف الذي تديره السيدة كري، ومتجر الأجواخ الذي تخيط فيه الآنسة ماربل ستائر بيتها، ومحل تزيين الشعر الذي تديره السيدة جيمسون والذي تقص فيه الآنسة ماربل شعرها، وأخيراً الخيّاطة التي تقيم فوق مكتب البريد، الآنسة بوليت، والتي سنقابلها في إحدى القصص القصيرة في هذه المجموعة.

وبالإضافة إلى هذه المجموعة من المتاجر الصغيرة التي تقدم كل الخدمات اللازمة للقرية توجد في سينت ميري ميد خدمة مهمة، وهي سيارات «إنش» للأجرة. وقد جاء هذا الاسم من المؤسسة التي أنشأها السيد إنش في زمن قديم لنقل الركاب بالأجرة، حين كانت الخدمة تُقدَّم بعربات الخيل (قبل اختراع السيارات وانتشارها). ومنذ ذلك الحين بقي اسم «إنش» مرادفاً لكلمة «سيارة الأجرة» بالنسبة لمجموعة السيدات العجائز في القرية، وهو اسم نجده يتردد في بعض الروايات (مثل رواية «شرخ في المرآة»).

أما مكتب البريد فيقع على تقاطع الطريق مقابل الكنيسة، وقد كان وصول الحافلة القادمة من بلدة متش بنهام في الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر كل يوم إلى مكتب البريد واحداً من الأحداث اليومية المهمة في قرية سينت ميري ميد.

وعلى الطرف الآخر من التقاطع ذاته كان يوجد فندق ومقهى القرية الوحيد، البلو بور، وقد ملكته أولاً عائلة بكنل، ثم

عائلة إموت، وكلا العائلتين عانت من بعض المتاعب العائلية، ولا سيما العائلة الثانية التي غرقت ابنتها روز في النهر الذي يمر من خلف الطاحونة (في قصة «الموت غرقاً» في مجموعة «ثلاثة عشر لغزاً»). وقد علمنا أن الكابتن ميلتشيت كان يجد في البلو بور مكاناً ملائماً لوجبة جيدة في سينت ميري ميد في الأوقات التي كان يضطر فيها للبقاء في القرية بسبب بعض الجرائم.

والآن نقطع الشارع العام إلى نهايته الأبعد لنصل إلى محطة القطار على الطرف الآخر من القرية، ومن هذه المحطة تنطلق القطارات إلى متش بنهام المجاورة ثم إلى لندن، وقد كانت تغادر القرية في الصباح الباكر أو في الثانية عشرة والربع من بعد الظهر، أما رحلة العودة المفضلة فكانت تلك التي تصل في السادسة وخمسين دقيقة مساء.

* * *

هذه هي بنية القرية الأساسية، وهي بنية تقليدية تشترك فيها كثير من القرى الإنكليزية الصغيرة، ولا نكاد نجد تغيراً جذرياً فيها على مر السنين. فبالرغم من الشكوى الدائمة التي نسمعها من الآنسة ماربل: "لم تعد قرية سينت ميري ميد المكان الذي عرفناه من قديم..." إلا أن التغيرات الحقيقية لا تكاد تُلمس. نعم، لقد صار السكان أكبر سناً، ولكن المجموعة الأصلية منهم بقيت هي ذاتها، مع أقل القليل من التغيير، فقد توفيت الآنسة وذربي -مثلاً- وسكن بيتَها مدير البنك الجديد. والدكتور هيدوك

تقدم به العمر ولكن الآنسة ماربل ما زالت تستدعيه لعلاجها كلما احتاجت طبيباً ولا تثق بطبيب سواه. ومصففة الشعر، السيدة جيمسون، أقدمت على تطوير ثوري لمجاراة تغيرات العصر فوضعت على دكانها لوحة كُتب عليها: «مصففة الشعر ديانا»، ولكن المحل في داخله لم يتغير أبداً.

بل إن معدل وقوع الجرائم في قرية سينت ميري ميد لم يتغير على مر السنين كذلك، فخلال نحو أربعين سنة وقعت فيها ست عشرة جريمة، منها خمس بالسم، واثنتان بإطلاق النار من مسدس، واثنتان بالغرق، واثنتان بالخنق، وخمسٌ بوسائل غير معلَنة أو غير معروفة. وبالإضافة إلى هذه الجرائم عرفت القرية محاولات فاشلة للقتل بالسم أو بتهشيم الرأس، وخمس حوادث سطو مسلح، وسلسلتين من أعمال الابتزاز، وثماني جرائم اختلاس، وجُنَحاً واعتداءات أخرى متفرقة عديدة.

وبعد ذلك كله يقول ريموند وست، ابن أخت الآنسة ماربل، واصفاً قرية سينت ميري ميد: "إنها كالمستنقع الراكد"، فتجيبه الآنسة ماربل قائلة: "ولكن لا شيء أكثر ضجة وامتلاء بالحياة من نقطة ماء في مستنقع راكد إذا نظرت إليها تحت عدسة ميكروسكوب"!

* * *

حياة الآنسة ماربل

"لقد وُلدت الآنسة ماربل وهي في نحو السبعين من عمرها، وهو سن غير موفق أبداً (كما هي الحال مع بوارو) لأنها كانت ستعيش معي لسنوات طويلة طويلة".

هذا ما كتبته أغاثا كريستي عن الآنسة ماربل في كتاب ذكرياتها، ولكن من أين استوحت أغاثا ملامح هذه الشخصية؟

تجيب هي نفسها -في موضع آخر من ذكرياتها- عن هذا السؤال: "الآنسة ماربل تشبه جدتي وصواحبها العجائز اللائي كنت أقابلهن في بعض القرى حيث كنت أذهب للإقامة والزيارة وأنا طفلة صغيرة، ولكنها ليست نسخة مطابقة لجدتي على أية حال، فهي أصعب إرضاء بالتأكيد! على أن الذي تشتركان فيه أن كلاً منهما كانت ذات شخصية مرحة محبوبة، وأن كلاً منهما تتوقع دائماً «أسوأ ما في الطبيعة البشرية». لقد كانت جدتي كذلك دائماً، والغريب (وربما المفزع أيضاً) أنها كانت دائماً على صواب!".

وربما استوحت أغاثا كريستي شخصية الآنسة ماربل من

شخصية سابقة لها، وهي الآنسة كارولين أخت الدكتور شبارد (والتي رأيناها في «مقتل روجر أكرويد»، الرواية التي حققت الشهرة المبكرة لأغاثا كريستي والتي نُشرت قبل أربع سنوات من أول ظهور علني للآنسة ماربل). وهي شخصية ذات سَمْت خاص نراه من خلال وصف أخيها، الدكتور شبارد، الذي قال عنها: "إن شعار عائلة النمس -كما يقول السيد كبلنغ- هو: «اذهب وابحث»، ولئن تعيّن على كارولين أن تتخذ لنفسها شعاراً يمثلها فإنني أرى أن يكون صورة نمس متأهب يقف على قدميه ومخالب يديه في الهواء، ويمكن للمرء حذف الكلمة الأولى من الشعار حيث تستطيع كارولين أن تجد الأشياء وهي جالسة في بيتها مطمئنة. لا أعرف كيف تصنع ذلك، لكن هذا ما يحدث. وأشكّ في أن الخدم والباعة يشكّلون طاقم استخباراتها، وهي عندما تخرج من البيت لا تخرج لتجمع المعلومات ولكن لتنشرها، وهي خبيرة مذهلة في هذا المجال أيضاً".

* * *

أفراد العائلة

لم تخبرنا الآنسة ماربل بالكثير عن أمها وأبيها، سوى أننا نمر بذكر عابر لهما وأيضاً لجدتها أحياناً هنا أو هناك، فقد حصل -مثلاً- أن عاد أبوها من باريس ذات مرة وقد اشترى بعض التحف البرونزية من معرضها الكبير. وقد علمنا أن أمها وجدّتها زارتا باريس كذلك: "ذهبنا لشرب الشاي في فندق الأليزيه،

ونظرت جدتي حولها ملياً ثم قالت فجأة: كلارا... أظن أنني الوحيدة التي تضع على رأسها هذه القلنسوة المضحكة (وهي قبعة ذات خيط يُربَط تحت الذقن تشبه تلك التي تضعها البنات الصغيرات)! وقد كانت فعلاً كذلك. وما كدنا نعود من باريس حتى حزمت كل ما تملكه من هذا النوع من القبعات وتخلصت منها جميعاً".

وقد كان لأمها وجدّتها دور في تلقينها الكثير من الأفكار والقِيَم التي حملتها في حياتها من بعد، مثل أن "السيدة الحقيقية لا تظهر عليها مشاعر الصدمة أو المفاجأة أمام الناس"، و"هي تتماسك أمام الناس وتظهر بالمظهر اللائق مهما تكن حقيقة مشاعرها ونفسيتها"، كما أن السيدة الحقيقية هي تلك التي "تعرف واجباتها ولا تقصر في أدائها أبداً".

بعد ذلك تحدثنا الآنسة ماربل عن المناسبات التي كانت تجمع أفراد الأسرة الكبيرة، وهكذا نتعرف إلى عمتها الكبرى فاني، وقد أخبرت الآنسة ماربل ذات مرة وهي في السادسة عشرة من عمرها أن "الصغار **يظنّون** أن الكبار مغفلون، أما الكبار فإنهم **يعلمون** أن الصغار كذلك!". كما نتعرف إلى عمتها الأخرى هيلين التي "وصلت وهي تضع على رأسها قلنسوة... ربما لأنها لم تذهب إلى باريس قط"! وكذلك نتعرف إلى عمة لا نعرف اسمها ولكن ما يميزها أنها قد نجت من خمس حوادث تحطمت فيها سفن كانت على متنها. وأخيراً نتعرف على تلك العمة (التي لا نعرف اسمها أيضاً) والتي كانت تملك «حاسة

شم» خارقة "تدرك بها متى يتحدث الناس بالأكاذيب"!

كما نتعرف إلى بعض أعمامها: العم الكبير ثوماس، الأدميرال المتقاعد الذي يعيش في منزل أنيق في ريتشموند. والعم هنري، ذلك الذي عرفنا أنه "ذو مقدرة غير عادية على التحكم بنفسه" وأنه "كان يخبئ مبالغ من المال وراء بعض الكتب في مكتبته".

* * *

الطفولة والشباب

على الرغم من أن الآنسة ماربل قد «وُلدت» في روايات أغاثا كريستي في سن يتراوح بين الخامسة والستين والسبعين، إلا أننا حصلنا على بعض المعلومات عن طفولتها المبكرة من إشارات متناثرة في عدد من الروايات. فقد كانت ذات ذاكرة قوية حتى لتتذكر لون ورق الجدران في غرفة الحضانة، وقد بُدِّل هذا الورق وهي في الثالثة من عمرها (كما تقول). وقد شاركتها غرفةَ الحضانة تلك أختٌ لها، وتلقت الفتاتان كلتاهما تعليماً جيداً بمستوى تلك الأيام.

وحين كانت في الرابعة عشرة تلقت منحة عظيمة حين سُمح لها بمرافقة عمها ثوماس وعمتها هيلين إلى لندن، حيث أقاموا في فندق بيرترام. وقد بقيت ذكريات تلك الرحلة في خيال الآنسة ماربل لسنوات طويلة بعد ذلك، وكانت تتذكرها -على الدوام- على أنها "أعظم عطلة تمتعت بها قط".

وفي نحو السادسة عشرة أُرسلت الآنسة ماربل إلى مدرسة داخلية في فلورنسا، وهناك التقت بأختين أمريكيتين اسمهما روث وكاري لويز، وقد جمعتها بهما صداقة استمرت إلى آخر العمر، حتى إن روث استعانت بها بعد خمسين سنة لعلاج مشكلة مع أختها كاري لويز (في رواية «خداع المرايا»).

والآنسة ماربل لم تتزوج قط، ولكنها عرفت في شبابها شاباً كادت تتزوج به، وقد تذكرته ذات يوم: "جين ماربل... الشابة الممتلئة بالحيوية. لقد كانت سخيفة في بعض الأوقات! ذلك الشاب اللطيف... ماذا كان اسمه؟ يا إلهي! حتى اسمه لا تكاد تتذكره الآن. لقد كانت أمها حكيمة حين قاومت ذلك المَيل بكل قوتها، فقد قابلته بعد سنوات فوجدته شاباً فظيعاً فاشلاً. أما في الوقت الذي حالت أمها بينهما فقد غرقت في الأسى حتى إنها لتبلل وسادتها بالدموع ليلة بعد ليلة لمدة أسبوع على الأقل". ومرة أخرى تعرفت في إحدى الحفلات إلى شاب بدا لطيفاً، ولكنها لم تلبث أن وجدته "غبياً كسولاً، بل في الغاية القصوى من البلادة والغباء".

* * *

السنوات اللاحقة

أشارت الآنسة ماربل غيرَ مرة -وهي في السبعينيات والثمانينيات من عمرها- إلى طفولتها المبكرة، ولكنها لم تكد أبداً تذكر شيئاً عن السنوات التي تلت ذلك وحتى تقدمها في

السن. ولعلنا نفهم من جملة عابرة قالتها في إحدى المناسبات أنها قامت على رعاية والديها المسنَّين وتمريضهما في آخر عمرهما: "بسبب الخبرة الطويلة في التمريض كانت الآنسة ماربل تشد -بشكل عفوي وتلقائي- ملاءة السرير جيداً وتطويها تحت الفرشة". فهل كانت تلك «الخبرة الطويلة في التمريض» مع والديها؟ ربما.

وهكذا نقفز مع الآنسة ماربل من طفولتها إلى الوقت الذي بقيت فيه عجوزاً مضى كل من تعرفه من الناس. وذات يوم تعترف لشخص يعاني من الوحدة: "نعم، أعرف ما تعنيه... حين يبقى المرء وحيداً بعد رحيل آخر من يشاركه الذكريات. إن لي الآن أبناءَ وبنات أخوات ولي أصدقاء ظرفاء، ولكن أياً منهم لا ينتمي إلى الأيام القديمة! لقد بت وحيدة منذ بعض الوقت".

هذه هي الآنسة ماربل، عجوز في نحو السبعين من عمرها، وقد مات أبواها منذ وقت طويل، وكذلك أعمامها وعماتها، وهي تعيش في بيت فكتوري لطيف (لعلها اشترته بمال تركه لها أبوها الراحل) في قرية سينت ميري ميد الهادئة.

إنها عشرينيات القرن العشرين، أو لعلها الثلاثينيات، وهي على وشك البدء بمغامرات التحري والبحث عن الجرائم!

* * *

سجل الآنسة ماربل

أول ظهور نعرفه للآنسة ماربل كان في رواية «جريمة في القرية» في سنة ١٩٣٠، أما آخر ظهور لها ففي رواية «انتقام العدالة» سنة ١٩٧١. وهكذا صحبنا الآنسة ماربل في تحرياتها ومغامراتها لمدة واحد وأربعين عاماً.

لقد قدمت لنا رواية «جريمة في القرية» الآنسة ماربل بالصورة التي عرفناها بها من بعد، وكذلك قدمت لنا القريةَ التي عاشت فيها، سينت ميري ميد، وعدداً كبيراً من الناس الذين عاشوا في تلك القرية. ومن هنا تكتسب هذه الرواية أهمية خاصة بالنسبة لمحبي الآنسة ماربل وقرّاء قصصها.

ولعل الرواية التالية في السياق التاريخي هي «جثة في المكتبة» (التي نُشرت عام ١٩٤٢). وهي لم تصدر بعد «جريمة في القرية» مباشرة ولكنها تبدو كذلك في تسلسل الأحداث، فقد انتهت تلك الأخيرة وغريزيلدا تخبر زوجها، الكاهن كليمنت، أنها حامل، وفي «جثة في المكتبة» نجد وليدها وقد بدأ يحبو على الأرض، مما يدلنا على أن نحو سنة كانت قد انقضت منذ

عُثر على جثة رجل قتيل في بيت الكاهن حين عُثر -هذه المرة- على جثة في غرفة المكتبة بمنزل الكولونيل بانتري. وقد اعتبرت أغاثا بداية هذه الرواية أكثر بدايات رواياتها نجاحاً.

وفي وقت لاحق من الثلاثينيات تأتي رواية «الإصبع المتحرك» (وقد نشرت عام ١٩٤٣)، وهي لم تقع في سينت ميري ميد بل في قرية متخيَّلة أخرى اسمها لايمستوك. وهي رواية تَمضي ثلاثةُ أرباعها قبل ظهور الآنسة ماربل التي لا تلبث أن تحل المعضلة وتعثر على القاتل في الوقت المناسب تماماً. لقد أحبت أغاثا هذه الرواية وقالت عنها في ذكرياتها بعد نشرها بوقت طويل: "لقد أحببت هذه الرواية فعلاً. إنه لامتحان صعب لأية رواية أن يعيد المرء قراءتها بعد كتابتها بسبع عشرة سنة، فذوق المرء ورأيه في تغير مستمر، وبعض ما يكتبه لا يصمد في امتحان الزمان وبعضه ينجح. وهذه الرواية مما نجح في الامتحان".

أما رواية «الجريمة النائمة» فقد نُشرت عام ١٩٧٦، أي في السنة التي ماتت فيها أغاثا كريستي. وقد اشتهرت على أنها الأخيرة من مغامرات الآنسة ماربل، ولكن هذا غير صحيح من حيث تاريخ كتابتها، فقد كتبت أغاثا هذه الرواية (ورواية بوارو الأخرى: «الستارة») خلال السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية. وكما أخبرتنا في مذكراتها: "كان ذلك من باب الاحتياط خشية موتي في الحرب، فقد بدا موتي متوقعاً تماماً بسبب عملي في لندن التي استهدفتها الغارات معظم الوقت". وقد قُدِّر لهاتين

الروايتين أن «تناما» في أدراج أغاثا كريستي لأكثر من ثلاثين عاماً قبل نشرهما أخيراً.

* * *

لقد شاركت أغاثا كريستي نفسها في الحرب متطوعة للعمل الميداني في المستشفيات. أما بطلتها، الآنسة ماربل، فقد اختفت عن الأنظار خلال تلك الفترة لتعود بالظهور في عام ١٩٥٠ في الرواية التي نُشرت في تلك السنة «إعلان عن جريمة» والتي تدور أحداثها في عام ١٩٤٨. وبعد ذلك ظهرت في «خداع المرايا» (المنشورة عام ١٩٥٢)، ثم في رواية «جيب مليء بالحبوب» في السنة التالية. وبعد ذلك بسنتين، في عام ١٩٥٥، عانت الآنسة ماربل من إصابتها بمرض ذات الرئة، مما استدعى أن تعتني بها ممرضة قديرة اسمها لوسي آيلسبارو، وبعد ذلك بسنتين استعانت الآنسة ماربل بهذه الممرضة نفسها لمساعدتها في حل لغز الجثة المختفية في «قطار الرابعة وخمسين دقيقة من بادنغتون»، وهي الرواية المنشورة عام ١٩٥٧.

بعد ذلك نجد الآنسة ماربل وهي تزداد تقدماً في السن وتحتاج إلى بعض الترويح بين وقت وآخر، وهكذا تقع أحداث ثلاث من رواياتها الأخيرة بعيداً عن القرية المعروفة. فهي متعَبة ومريضة في الفترة التي تقع فيها أحداث «شرخ في المرآة» (المنشورة عام ١٩٦٢)، وهذا قد استدعى تدخل ابن أختها، الروائي المشهور ريموند ويست، ليعيّن لها خادمة في البداية ثم

ليحملها على القيام ببعض الإجازات لترويح عن نفسها بعد ذلك. ولكن الإثارة تلاحقها أنَّى ارتحلت، فنجدها منشغلة بالجرائم والألغاز في منطقة الكاريبي («لغز البحر الكاريبي»، ١٩٦٤)، وفي الفندق الفخم بمدينة لندن («في فندق بيرترام»، ١٩٦٥)، وأخيراً في رحلة عبر إنكلترا («انتقام العدالة»، ١٩٧١).

* * *

مسرد بمغامرات الآنسة ماربل (الروايات الطويلة) حسب تسلسل صدورها

جريمة في القرية	١٩٣٠
ثلاثة عشر لغزاً	١٩٣٢
جثة في المكتبة	١٩٤٢
الإصبع المتحرك	١٩٤٣
إعلان عن جريمة	١٩٥٠
خداع المرايا	١٩٥٢
جيب مليء بالحبوب	١٩٥٣
قطار ٤,٥٠ من بادنغتون	١٩٥٧
شرخ في المرآة	١٩٦٢
لغز البحر الكاريبي	١٩٦٤
في فندق بيرترام	١٩٦٥
انتقام العدالة	١٩٧١
الجريمة النائمة	١٩٧٦

* * *

مزحة غريبة

قالت جين هيلر وهي تكمل تعريف ضيوفها بعضهم ببعض: وهذه هي الآنسة ماربل!

ولأنها ممثلة فقد كانت تستطيع أن تعطي لكلامها المعنى الذي تريد، وكان واضحاً أن عبارتها تلك كانت قمة التشويق، أو الخاتمة الرائعة! كانت نبرة صوتها مزيجاً من الرهبة والاحترام والزهو في آن واحد.

كان الغريب في الأمر أن من تمّ تقديمها للضيوف بكل هذا الفخر لم تكن سوى عجوز رقيقة يبدو عليها الميل للقيل والقال، لذلك ظهر عدم التصديق وشيء من خيبة الأمل في عيون الشاب والفتاة اللذين سعت جين لتعريفهما بها. كانا شابين جميلين: الفتاة (وتدعى تشارميان ستراود) نحيلة سمراء، والشاب (واسمه إدوارد روسيتر) عملاق لطيف أشقر الشعر.

قالت تشارميان وهي تلهث قليلاً: آه! إننا مسروران جداً بلقائك.

ولكن الشك كان بادياً في عينيها. نظرت إلى جين هيلر نظرة

تساؤل سريعة فقالت جين رداً على نظرتها: "إنها رائعة تماماً يا عزيزتي... اتركي كل شيء لها. لقد أخبرتك أنني سأحضرها إلى هنا، وقد فعلت". ثم أضافت تخاطب الآنسة ماربل: **ستحلّين** المشكلة لهما، أعرف ذلك. سيكون الأمر سهلاً عليك.

نقلت الآنسة ماربل عينيها الهادئتين العميقتَي الزُّرقة صوب السيد روسيتر وقالت: ألن تشرح لي المشكلة؟

تدخلت تشارميان بنفاد صبر قائلة: إن جين صديقة لنا. أنا وإدوارد وقعنا في ورطة. وقد طلبت جين منّا أن نحضر حفلتها حتى تقدمنا لشخص يمكن... من شأنه...

أسرع إدوارد لنجدتها: أخبرتنا جين بأنك صاحبة القول الفصل في أمور التحري يا آنسة ماربل!

طرفت عينا السيدة العجوز، ولكنها عارضت بتواضع: آه، لا، لا! لست كذلك. كل ما في الأمر أن من يعيش في قرية مثلي يعرف الكثير عن الطبيعة البشرية. ولكنكما زدتما فضولي حقاً. أرجو أن تحدّثاني عن مشكلتكما.

قال إدوارد: أخشى أن يكون تعبيري مكروراً مبتذلاً... إنها مجرد كنز مدفون.

- أحقاً؟ ولكن هذا يبدو مثيراً جداً!

- أعرف، مثل حكاية «جزيرة الكنز». ولكن مشكلتنا تفتقر إلى اللمسات الرومَنسية المعتادة، فلا توجد علامة على خريطة،

ولا رموز الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين، ولا تعليمات كتلك التي تقول: "أربع خطوات إلى اليسار، ثم الشمال الغربي". إنها قضية عادية لا إثارة فيها، وملخصها هو: أين ينبغي أن نحفر؟

- هل حاولتم الحفر؟

- لقد حفرنا مساحة تُقدّر بنحو فدانين مربعين كاملين، حتى لقد أصبحت الأرض جاهزة لتكون حديقة إنتاجية... غير أننا نناقش فقط هل نزرعها بالكوسا أم بالبطاطا!

قالت تشارميان فجأة: أيمكننا أن نخبرك كل شيء عن هذا الأمر؟

- بالطبع يا عزيزتي.

- إذن، هيّا نبحث عن مكان هادئ. هيّا يا إدوارد.

تقدمت خارجةً من الغرفة الصغيرة المكتظة العابقة بروائح الدخان، وصعدوا جميعاً الدرج إلى الطابق العلوي ثم دخلوا غرفة جلوس صغيرة هناك.

وعندما جلسوا بدأت تشارميان حديثها على الفور: حسناً، هاكِ الحكاية. الحكاية تبدأ بالعم ماثيو... أو بالأحرى العم البعيد البعيد لنا نحن الاثنين. كان عجوزاً طاعناً في السن وكنت أنا وإدوارد قريبيه الوحيدين. وكان يحبنا كثيراً، وقد أخبرَنا دائماً أنه سيترك عند موته كل ثروته لنا نحن الاثنين مناصفة. وقد مات في شهر آذار الماضي وترك كل شيء كان يملكه لنقتسمه أنا وإدوارد

مناصفة. إن ما قلته تواً قد يبدو كلاماً قاسياً، ولكني لا أقصد هنا أن موته كان أمراً مفيداً، فقد كنا نحبه كثيراً في الواقع. ولكنه كان مريضاً منذ فترة طويلة. المهم أن «كل شيء» الذي تركه لنا ظهر أنه لا شيء أبداً، وكانت هذه -بصراحة- صدمة موجعة لنا نحن الاثنين، أليس كذلك يا إدوارد؟

وافقها إدوارد الودود قائلاً: لقد اعتمدنا قليلاً على هذا الأمر. أقصد أن المرء عندما يعلم أن ثروة كبيرة في طريقها إليه فإنه لا يبذل مجهوداً كبيراً لجمع ثروة بنفسه. أنا في الجيش ولا أملك شيئاً يُذكر سوى راتبي، كما أن تشارميان نفسها لا تملك شيئاً. إنها تعمل مديرة مسرح، وهو عمل ممتع تماماً وهي مستمتعة به، ولكنه لا يحقق عوائد تُذكر. كنّا نعقد آمالاً على زواجنا، ولم نقلق بخصوص المال لأننا كنا نعرف أننا سنصبح أغنياء تماماً يوماً ما.

قالت تشارميان: وكما ترين فنحن لسنا كذلك! والأنكى من هذا أن «أنستيز» (وهو بيت العائلة الذي أحببناه أنا وإدوارد) ربما وجب عرضُه للبيع، ونحن نشعر أننا لا يمكن أن نطيق هذا الأمر، ولكن إذا لم نجد أموال العم ماثيو فسوف نضطر إلى بيعه.

قال إدوارد: ما زلنا بعيدين عن النقطة الحيوية يا تشارميان.

- حسناً، تكلم أنت إذن.

التفت إدوارد إلى الآنسة ماربل وقال: الأمر هكذا: مع تقدم العم ماثيو بالعمر أخذ يزداد ارتياباً ولم يعد يثق بأحد.

قالت الآنسة ماربل: إنه سلوك حكيم جداً من جانبه، فالطبيعة البشرية فاسدة إلى درجة لا يمكن تصديقها.

- ربما تكونين على حق. على أي حال كان العم ماثيو يعتقد بذلك. كان له صديق فقدَ أمواله في أحد البنوك، وصديق آخر دمر حياتَه محامٍ فرّ من وجه العدالة، كما أنه هو نفسه خسر أموالاً في شركة وهمية. وقد بلغ به هذا الأمر حداً جعله يقول دائماً أن التصرف الوحيد الآمن والمعقول هو أن يحوّل المرء أمواله إلى سبائك ذهبية ويدفنها.

قالت الآنسة ماربل: آه، بدأت أفهم.

- نعم. لقد ناقشه أصدقاء له في هذا مشيرين إلى أنه لن يحصل على فوائد بهذه الطريقة، ولكنه كان يرى أن هذا الأمر غير مهم. وقد قال إن ثروة المرء "يجب أن تُحفَظ في صندوق تحت السرير أو تُدفَن في الحديقة". كانت هذه كلماته.

أكملت تشارميان الحديث قائلة: وعندما توفي لم يترك أي سندات مالية أبداً، رغم أنه كان غنياً جداً. ولذلك نعتقد أن ذلك هو ما فعله دون شك.

أوضح إدوارد: لقد اكتشفنا أنه باع سندات مالية وسحب مبالغ ضخمة من وقت لآخر دون أن يدري أحد ماذا فعل بها. ولكن يبدو ممكناً أنه طبّق خطته فاشترى ذهباً ودفنه.

- ألم يقل شيئاً قبل أن يموت؟ ألم يترك ورقة أو رسالة؟

- هذا هو الأمر الذي يثير الجنون... لم يترك شيئاً! لقد فقد وعيه بضعة أيام لكنه أفاق قبل أن يموت، وقد نظر إلينا نحن الاثنين وضحك... ضحكة ضعيفة باهتة، ثم قال: "ستكونان على ما يرام أيها الغزالان الجميلان". ثم أغمض عينيه (بل عينه اليمنى، وغمزنا) ثم مات. مسكين العم ماثيو.

قالت الآنسة ماربل متأملة: أغمض عينه.

قال إدوارد متلهفاً: هل يدلك هذا على شيء؟ لقد جعلني هذا أفكر في قصة أرسين لوبين حيث كان شيء مخبأ في عين زجاجية لأحد الرجال. لكن العم ماثيو لم تكن له عين زجاجية.

هزت الآنسة ماربل رأسها حيرة وقالت: لا، لا أستطيع التفكير بأي شيء في هذه اللحظة.

قالت تشارميان بشيء من خيبة الأمل: أخبرتْنا جين أنك ستخبريننا **فوراً** عن المكان الذي ينبغي علينا أن نحفر فيه!

ابتسمت الآنسة ماربل وقالت: أنا لست ساحرة ولم أعرف عمك أو أي نوع من الرجال كان، كما أنني لا أعرف البيت أو الأراضي المحيطة به.

قالت تشارميان: وإذا عرفتِهما؟

- حسناً، لا بد أن الأمر سيكون بسيطاً للغاية، أليس كذلك؟

- بسيطاً! تعالي إلى البيت وانظري إن كان بسيطاً!

ربما لم تكن تشارميان تقصد بعبارتها تلك دعوة الآنسة ماربل جدياً، إلّا أن الأخيرة سارعت إلى القول: حسناً، هذا كرم كبير حقاً من طرفك يا عزيزتي. لقد أحببت دائماً أن تتاح لي فرصة للبحث عن كنز مدفون.

ثم أضافت وهي تنظر إليهما مبتسمة: وباهتمام دافعه الحب أيضاً!

* * *

قالت تشارميان وهي تشير بيدها بطريقة درامية: أترين!

كانوا قد اختتموا جولة كبيرة في البيت وما حوله، فقد تمشوا في حديقة المطبخ التي حُفرت في كل جزء منها، كما ساروا خلال الأحراش الصغيرة حيث حُفر حول كل شجرة، ونظروا بحزن إلى السطح المليء بالحفر للمرجة العشبية التي كانت يوماً مستوية رائعة. ثم صعدوا إلى العلّية، حيث بُعثرت محتويات الصناديق والخزائن الموجودة فيها وأُفرغت من محتوياتها، ونزلوا إلى السراديب حيث تم اقتلاع الأحجار من مكانها، وقاموا بقياس الجدران والضرب عليها، وشاهدت الآنسة ماربل كل قطعة أثاث أثرية يُشَكّ في أنها تحتوي على دُرج سرّي.

كان على طاولة في غرفة الطعام كومة من الأوراق... جميع الأوراق التي تركها الراحل ماثيو ستراود. لم يتم إتلاف

أي ورقة منها، وقد اعتادت تشارميان وإدوارد الرجوع إليها مرة تلو الأخرى، يمعنان النظر في الفواتير والدعوات ومراسلات العمل على أمل أن يعثرا على دليل لم يلحظاه من قبل.

سألتها تشارميان بشيء من الأمل: هل يمكنك التفكير في أي مكان لم نبحث نحن فيه؟

هزت الآنسة ماربل رأسها بالنفي وقالت: يبدو أنكما تعمقتما تماماً في البحث... بل ربما كان تعمقكما هذا أكثر قليلاً من المطلوب. أنا أرى دوماً أن على المرء أن يضع خطة، وهذا يشبه ما حدث مع صديقتي السيدة إيلدريتش، فقد كانت لديها خادمة صغيرة لطيفة تلمّع أرضية البيت بكل حرص، ولكنها كانت من الحرص بحيث بالغت في تلميع أرضية الحمّام، وبينما كانت السيدة إيلدريتش تخرج من الحمّام انزلقت الممسحة من تحت قدميها فوقعت على الأرض وقعة شديدة وكسرت ساقها! وكانت تلك مشكلة فظيعة للغاية لأن باب الحمّام كان مقفلاً، وقد اضطر البستاني أن يحضر سلّماً ويدخل من خلال النافذة لإنقاذها.

تململ إدوارد فسارعت الآنسة ماربل بالقول: أرجو أن تسامحني. أعرف أنني أنحرف دوماً عن موضوع الحديث، ولكن الشيء بالشيء يُذكَر، وهذا ما يكون مفيداً أحياناً. كل ما أحاول قوله هو أننا لو حاولنا أن نشحذ عقولنا ونفكر في مكان محتمل.

قال إدوارد غاضباً: أنت فكري لنا في مكان يا آنسة ماربل،

فعقلي وعقل تشارميان أصبحا الآن فارغين!

- أيها المسكينان. إنه أمر متعب جداً لكما بالطبع. إذا لم تمانعا فإنني أود إلقاء نظرة على هذه...

وأشارت إلى الأوراق على الطاولة وقالت: هذا إن لم يكن فيها أوراق خاصة، فلا أريد الظهور بمظهر المتطفلة.

- آه، لا بأس. لكن أخشى أن لا تجدي شيئاً.

جلست إلى الطاولة وبدأت بفحص كومة الأوراق، وعندما كانت تنتهي من كل واحدة كانت تفرزها -آلياً- في مجموعات صغيرة مرتبة. وعندما انتهت من عملها جلست تحدق أمامها بضع دقائق.

سألها إدوارد بنبرة لا تخلو من خبث: حسناً يا آنسة ماربل؟

فوجئت الآنسة ماربل (وكانها كانت شاردة بعيداً) وقالت: أرجو المعذرة، لم أسمع ما قلتَه.

- هل وجدت شيئاً ذا صلة بالأمر؟

- آه، لا، لا شيء من هذا. ولكني أعتقدُ حقاً أنني أعرف أي نوع من الرجال كان عمك. إنه مثل عمي هنري، كان مولعاً بالمزاح. واضح أنه كان أعزب... لا أدري سبب ذلك، ربما كان بسبب خيبة أمل مبكرة؟ وهو منهجيٌّ بدرجة كبيرة، ولكنه لا يحب الارتباط. إن كثيراً من العزاب على هذا الشكل!

أشارت تشارميان لإدوارد من وراء ظهر الآنسة ماربل بإشارة مفادها أن هذه المرأة معتوهة.

كانت الآنسة ماربل مستمرة في الحديث عن عمها الراحل هنري بسعادة: كان مولعاً جداً بالغمز في كلامه، وهذا الغمز مزعج جداً لبعض الناس، فإن من شأن التلاعب بالألفاظ أن يثير الغضب الشديد. كما كان رجلاً شكّاكاً أيضاً، وكان مقتنعاً دائماً بأن الخدم كانوا يسرقونه. صحيح أنهم كانوا يسرقونه أحياناً، ولكن ليس دائماً. وقد تفاقم الأمر عند الرجل المسكين حتى بات -في النهاية- يرتاب في عبثهم بطعامه، فأخذ يرفض أكل شيء سوى البيض المسلوق (بحجة أن أحداً لا يمكنه العبث بداخل البيضة المسلوقة)! لقد كان العم العزيز هنري ذا روح مرحة في وقت من الأوقات، وكان يحب تناول القهوة بعد العشاء ويطلب المزيد منها دائماً.

أحس إدوارد بأنه سيصاب بالجنون لو سمع المزيد عن العم هنري، ولكن الآنسة ماربل تابعت تقول: كما أنه كان مولعاً بالشباب والصغار، ولكنه كان يميل إلى إغاظتهم قليلاً، فكان يضع علب الحلوى في مكان لا يمكن للطفل أن يصله.

نَحَّتْ تشارميان الأدب جانباً وقالت: أظنه يبدو فظيعاً!

- آه، لا يا عزيزتي، كان مجرد أعزب عجوز، ولم يكن معتاداً على الأطفال. ولم يكن بالغبي أبداً في الواقع. كان يحتفظ بمبلغ كبير من المال، وقد وضع خزنة حديدية في البيت وظل

يردد -طوال الوقت- مزاياها وما توفره من أمان. ونتيجة لحديثه الكثير عنها اقتحم اللصوص بيته ذات ليلة وفتحوا ثغرة في الخزنة باستخدام أداة حادة.

قال إدوارد: ووقع في جزاء عمله.

قالت الآنسة ماربل: آه، ولكن لم يكن في الخزنة شيء. كان يحتفظ بنقوده في مكان آخر... وراء بعض مجلدات المواعظ في المكتبة، وكان يقول إن الناس لا يأخذون كتاباً من هذا النوع من مكانه!

قاطعها إدوارد بانفعال: هذه فكرة جديدة. ماذا عن المكتبة؟

لكن تشارميان هزت رأسها بازدراء وقالت: أتظنني لم أفكر بهذا؟ لقد فتشت جميع الكتب يوم الثلاثاء الماضي، عندما ذهبت أنت إلى بورتسماوث. أخرجت جميع الكتب ونفضتها ولم أعثر على شيء.

تنهد إدوارد، ثم نهض وحاول -بلباقة- تخليص نفسه من ضيفتهما المخيِّبة للآمال قائلاً: جميل منك أن تأتي إلى هنا وتحاولي مساعدتنا. نحن نأسف لإخفاقنا. أشعر أننا بدّدنا الكثير من وقتك... سأُخرج السيارة لإيصالك بحيث تلحقين بقطار الثالثة والنصف.

- آه، ولكن يجب أن نعثر على النقود، أليس كذلك؟ يجب أن لا تستسلم لليأس يا سيد روسيتر. إذا لم تنجح من أول

مرة فحاول، ثم حاول، ثم حاول.

- هل تقصدين أنك ستواصلين... ستواصلين المحاولة؟

- بالضبط. أنا لم أبدأ بعد، وكما تقول السيدة بيتون في كتابها عن الطهي: «أمسك أولاً أرنبك...»، وهو كتاب رائع ولكنه باهظ الثمن، وتبدأ معظم وصفات الطعام بعبارة: «خذي ربع غالون من القشطة وعشر بيضات». ماذا كنت أقول؟ آه، نعم، علينا أن نمسك أرنبنا. وقد أمسكنا أرنبنا إذا صح التعبير، والأرنب هنا هو عمك ماثيو بالطبع، وما علينا إلّا أن نقرر الآن أين كان من شأنه أن يخبئ الأموال. يجب أن يكون هذا بسيطاً جداً.

سألتها تشارميان: بسيطاً؟

- نعم يا عزيزتي. أنا واثقة أن من شأنه أن يفعل الشيء الواضح... أظنه وضع المال في دُرْج سرّي.

قال إدوارد ببرود: لا يمكنك أن تضعي سبائك ذهبية في دُرج سري.

- نعم، بالطبع. ولكن لا يوجد سبب للاعتقاد بأن المال يأخذ شكل سبائك ذهبية.

- لقد كان دائماً يقول...

- وهذا ما كان يقوله عمي هنري عن خزنته! ولذلك أشكّ كثيراً في أن كلامه لم يكن سوى ستار للتضليل. إن أحجار

الألماس يمكن وضعها في دُرج سري بسهولة تامة.

- ولكننا فتشنا كل الأدراج السرية. لقد أحضرنا نجاراً لفحص الأثاث.

- أحقاً يا عزيزتي؟ هذا ذكاء منك. أرى أن طاولة المكتب الخاصة التي كان عمك يستخدمها هي المكان الأرجح. أكان مكتبه ذلك المكتب المقابل للحائط هناك؟

- نعم، وسوف أريك.

ذهبت تشارميان إلى المكتب وفتحت مصراع المنضدة. كانت في الداخل رفوف صغيرة مربعة وأدراج صغيرة، وفتحت باباً صغيراً في الوسط ولمست لولباً داخل الدرج الأيسر. أصدر الدرج الأوسط صوتاً وانزلق إلى الأمام، فأخرجته تشارميان كاشفة عن حجيرة صغيرة تحته، وكانت فارغة.

صاحت الآنسة ماربل: أليست هذه مصادفة غريبة؟ كان للعم هنري مكتبٌ مثله، إلّا أنه كان من خشب الجوز، أما هذا فمن خشب الماهوغاني الأحمر.

قالت تشارميان: على أي حال ليس فيه شيء كما ترين.

- أظن أن النجار الذي أحضرتماه كان شاباً ولم يكن يعرف كل شيء. كان الناس بارعين جداً عندما يصنعون مخابئ سرية في تلك الأيام، وكان ما يُسمى «السرّ داخل السر».

أخرجت دبوساً من كومة شعرها الرمادي المرتب فأدخلته في مكان بدا ثقباً صغيراً لحشرة في أحد جوانب الدرج السري، وببعض الصعوبة أخرجت منه درجاً صغيراً. وكان بداخله حزمة من الرسائل باهتة اللون وورقة مطوية.

انقض إدوارد وتشارميان على هذا الاكتشاف معاً. فتح إدوارد الورقة بأصابع مرتجفة، ثم رماها وهو يصيح مغتاظاً: تباً! إنها وصفة لتحضير وجبة طعام... لحم مشوي!

حلت تشارميان الخيط الذي كان يربط الرسائل وأخرجت واحدة منها فنظرت إليها قائلة: إنها رسائل غرامية!

هتفت الآنسة ماربل بحماسة فكتورية: هذا مثير جداً! ربما كان هذا هو سبب عدم زواج عمك أبداً.

قرأت تشارميان بصوت مرتفع:

عزيزي الغالي ماثيو،

لا بد أن أعترف بأن الوقت قد طال على استلام آخر رسالة منك. إنني أحاول أن أشغل نفسي بالمهام العديدة الموكلة إليّ، وغالباً ما أقول لنفسي إنني محظوظة جداً لمشاهدتي كثيراً من بلاد العالم، رغم أنني لم أحسب عندما ذهبت إلى أمريكا أنني سأسافر إلى هذه الجزر البعيدة!

سكتت تشارميان ثم قالت: من أين هذه الرسالة؟ آه! من

هاواي! ثم أكملت:

للأسف، فإن السكان المحليين أبعد ما يكونون عن المدنية. إنهم بدائيون ويقضون معظم وقتهم في السباحة والرقص ويزينون أنفسهم بأكاليل الزهور. وقد نجح السيد غراي في تنصير بعض السكان، ولكنه عمل شاق، وقد ثبطت عزيمته وعزيمة زوجته. إنني أحاول بذل جهدي لتشجيعه وإدخال السرور إلى نفسه، لكنني -أنا الأخرى- حزينة لسبب تعرفه يا عزيزي ماثيو. للأسف فإن الغياب محنة قاسية على القلب المحب. إن قَسَمك الذي تجدّده كل مرة وتأكيداتك على حبك لي تفرحني كثيراً. أنت تملك الآن وإلى الأبد قلبي المحب والمخلص يا عزيزي ماثيو. وسأبقى دائماً... حبك الحقيقي، بيتي مارتن.

ملاحظة: أرسل رسائلي لك على عنوان صديقتنا المشتركة ماتيلدا غريفس كالعادة. أرجو أن يسامحني الله على حيلتي الصغيرة هذه.

صفر إدوارد قائلاً: امرأة تعمل في البعثات التبشيرية! كانت تلك -إذن- هي قصة حب العم ماثيو. ترى لماذا لم يتزوجا؟

قالت تشارميان وهي تفحص الرسائل: يبدو أنها سافرت إلى كل أنحاء العالم... جزر موريشيوس... جميع الأماكن. ربما ماتت من الحمى الصفراء أو مرض مثله.

جفل الاثنان بسبب ضحكة خفيفة أطلقتها الآنسة ماربل وقد بدا عليها الفرح. قالت: حسناً، حسناً، هذا غريب!

كانت تقرأ وصفة تحضير اللحم المشوي، وعندما رأت نظراتهما المتسائلة قرأت بصوت مرتفع: "لحم مشوي مع السبانخ: تؤخذ قطعة من لحم الفخذ، تُفرك بالثوم وتُغطى بالسكر الأحمر، ثم توضع على نار خفيفة في الفرن، ثم تُقدّم محاطة بالسبانخ المهروس". ماذا تريان في هذه؟

قال إدوارد: أراها أكلة مقززة.

- لا، من شأنها أن تكون أكلة رائعة. ولكن ما رأيكما بالأمر كله؟

أضاء وجه إدوارد فجأة وقال: أتظنينها شيفرة ما... أو رسالة سرية؟

أمسك بها وقال: انظري يا تشارميان، قد تكون كذلك بالفعل! وإلّا لما كان من داعٍ لوضع وصفة طعام في دُرج سري.

قالت الآنسة ماربل: بالضبط، هذه نقطة مهمة جداً.

قالت تشارميان: أعرف ما يمكن أن تكون... حبراً سرياً! دعنا نسخّنها، أشعل المدفأة الكهربائية.

فعل إدوارد ما قالته، ولكن لم تظهر أية إشارات على وجود كتابة سرية.

تنحنحت الآنسة ماربل وقالت: أظن أنكما تصعِّبان الأمر

قليلاً. إن وصفة الطعام مجرد مؤشر فقط. أعتقد أن الرسائل هي الأمر المهم.

- الرسائل؟

- ولا سيّما التوقيع.

لكن إدوارد لم يكد يسمعها، إذ صاح دَهِشاً: تشارميان، تعالي هنا! إنها على حق. انظري... المغلفات قديمة بالفعل، ولكن الرسائل نفسها كُتبت حديثاً.

قالت الآنسة ماربل: بالضبط.

- لقد زُيِّفت بحيث تبدو قديمة. أراهن أن العم ماثيو هو الذي زوّرها بنفسه.

قالت الآنسة ماربل: بالضبط.

- الأمر كله خدعة؛ لم تكن هناك امرأة تعمل في التبشير. لا بد أنها شيفرة.

- يا ولديّ العزيزين... لا حاجة لجعل الأمر صعباً للغاية. كان عمكما رجلاً بسيطاً تماماً، وكان يريد أن يمزح كعادته، وهذا كل ما في الأمر.

لأول مرة أصغيا إليها إصغاء كاملاً. سألتها تشارميان: ماذا تقصدين بالضبط يا آنسة ماربل؟

- أقصد أنك تمسكين بالمال بيدك في هذه اللحظة بالفعل.

حدقت تشارميان إلى الرسالة.

- التوقيع يا عزيزتي... إنه يكشف كل شيء. وصفة الطعام مجرد مؤشر. إذا جردنا كلماتها من الثوم والسكر الأحمر وبقية هذه الأشياء فماذا تكون عملياً؟ سيبقى فخذ اللحم والسبانخ بالتأكيد. فخذ اللحم والسبانخ. والمعنى: هراء! ولذلك فالواضح أن الرسائل هي المهمة. ثم فكرا بما فعله عمكما قبل موته بوقت قصير. لقد غمز بعينه كما قلتما. حسناً، هذا يعطيكما المفتاح.

قالت تشارميان: هل أنت مجنونة أم نحن المجانين؟

- لا بد أنك سمعت -يا عزيزتي- العبارة التي تقول: «ليس كل ما يلمع ذهباً». لقد كان القدماء يقولون إذا ما رأوا فتاة جميلة: «عيني على بيتي مارتن».

شهق إدوارد وعيناه تنظران إلى الرسالة التي يمسك بها بيده وقال: بيتي مارتن...

- بالطبع يا سيد روسيتر. كما قلتَ لتوك: لم توجد أبداً واحدة بهذا الاسم. عمك هو الذي كتب الرسائل، كما أظن أنه استمتع كثيراً بكتابتها! وكما قلت فإن الكتابة على المغلفات تبدو مكتوبة قبل الرسائل نفسها بوقت طويل... وفي الواقع هذه المغلفات لا تخص الرسائل التي فيها لأن خاتم البريد على المغلف الذي بيدك يحمل تاريخ ألف وثمانمئة وواحد وخمسين.

سكتت، ثم شدّدت على كلمتها: **عام ألف وثمانمئة وواحد**

وخمسين. وهذا يوضح كل شيء، أليس كذلك؟

قال إدوارد: ليس بالنسبة لي.

- بالطبع، أظن أنه ما كان سيتضح لي أيضاً لولا ليونيل، ابن بنت أختي. كان ولداً صغيراً يهوى جمع الطوابع ويعرف كل شيء عن طوابع البريد. وهو الذي أخبرني عن الطوابع النادرة والثمينة، وأن طابعاً اكتُشف حديثاً سيعرض في المزاد. وأذكر أنه ذكر لي طابعاً معيناً... صدر عام ألف وثمانمئة وواحد وخمسين... **طابعاً أزرق من فئة سنتين**. وقد بيع بمبلغ يصل إلى نحو خمسة وعشرين ألف دولار حسب ظني. تخيّل! وأظن أن الطوابع الأخرى نادرة وثمينة. لا شك أن عمكما قد اشترى هذه الطوابع من أناس يتعاملون بها وكان حريصاً على «تغطية خدعه» كما يُقال.

زأر إدوارد وجلس واضعاً وجهه بين يديه، فسألته تشارميان: ماذا في الأمر؟

- لا شيء. لقد راودتني فقط الفكرة بأننا -لولا الآنسة ماربل- كنا سنحرق هذه الرسائل بكل أدب وفاء لذكرى العجوز!

قالت الآنسة ماربل: هذا ما لا يدركه هؤلاء الرجال المسنّون الذين يحبون المزاح. أذكر أن العم هنري أرسل ورقة نقدية بمبلغ خمسة جنيهات لابنة أخ له يحبها هديةً في عيد الميلاد. وقد وضعها بين ورقتي بطاقة المعايدة وألصق الورقتين وكتب عليها: "مع حبي وأطيب أمنياتي. أخشى أن يكون هذا كل ما يمكنني

عمله لك هذا العام". وقد تضايقت الفتاة المسكينة مما ظنته بخلاً منه فألقت البطاقة مباشرة في النار. ثم كان عليه أن يعطيها غيرها بالطبع.

تغيرت مشاعر إدوارد نحو العم هنري تغيراً تاماً وقال: آنسة ماربل، سأقيم لك مأدبة عامرة على شرف عمك العزيز الراحل هنري!

* * *

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون قد استمتعت بقراءة جزء من هذه المجموعة القصصية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذا الكتاب (وسواه من الإصدارات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال
www.al-ajyal.com